

■ الإمام أبو الفرج جمال الدين بن علي بن محمد بن جعفر الجوزي البغدادي المولود سنة ٥٠٨ هـ، والمتوفي سنة ٥٩٧ هـ (١١١٤ - ١٢٠١ م) من أئمة حضارتنا وأعلامها المشهورين.

- والجوزي أو ابن الجوزي عربي قرشي تيمي بكري يتصل نسبه بأبي بكر الصديق رضي الله عنه.. وقد وُلد ببغداد وعاش بها وظهر نبوغه مبكراً (١) وهو من المكثرين في التأليف، وقد صنف في فنون كثيرة وقد حسب عمره وقسم ما ألفه عليه منذ وُلد فكان ماخص كل يوم تسع كراريس (٢) وأظنهم عنوا بالكراريس ما يعرف في عصرنا بالورقات أو الصفحات.

فهو - بهذا - تال للطبري وابن حزم.. وربما فاق ابن تيمية وابن القيم في كثرة ما ألف.

وقد برز ابن الجوزي في علوم كثيرة تفرد بها، وجمع من المصنفات الكبيرة والصغيرة نحواً من ثلاثمائة مصنف، وكتب بيده فيما قيل - نحواً من مائتي مصنف.

وقد أخذ الفقه عن أبي منصور الجواليقي، وحفظ الوعظ، ووعظ وهو ابن عشرين سنة أو دونها، وحضر مجلس وعظه ألوف كثيرة، كان من بينهم الخلفاء والوزراء والأمراء والعلماء.. فضلاً عن العامة.. وقيل إن أقل من كانوا يحضرون في مجلس وعظه عشرة آلاف مستمع.



بقلم الدكتور:

عبد الحليم عويس



أدب المناجاة ..

عند ابن الجوزي من خلال كتابه «المدهش»

وقد عرف ابن الجوزي بفن برز فيه وبرز فيه وهو فن الوعظ ويعتبر كتابه «المدهش» (٣) العمدة في هذا الباب، والذي يمثل فيه ابن الجوزي قمة النبوغ في هذا الفن، الذي يعدّ من الفنون الأساسية في بناء الإنسان المسلم وتكوين شخصيته، على أساس رباني لا يتجاوز الدنيا، وإنما يربطها بالآخرة ربطاً محكماً لا تنفك عنه، تماماً مثلما ترتبط القنطرة بالطريق، وترتبط الغاية بالوسيلة.

وقد ساعدت الأدوات الثقافية الكثيرة التي يملكها ابن الجوزي فن الوعظ عنده على البلوغ للغاية، والصعود إلى قمة سامقة، قلما يطاوله فيها واعظ من الواعظين..

فعلمه بالحديث، وموهبته الشعرية، وقدرته الأدبية، وعلمه بالتاريخ، وثروته اللغوية، وإلمامه بالجوانب النفسية والاجتماعية المؤثرة في الإنسان،

.. كل هذه المواهب جعلته ينجح في فنّ الوعظ.. وينجح كعالم مخلص يحسن تربية الأمة تربية رفيعة المستوى، جامعة بين الدنيا والآخرة.

وكان تفرد ابن الجوزي بفنّ الوعظ تفرداً لم يعرف له مثيل، فلم يسبق إليه، ولم يلحق شأوه فيه، وفي طريقتة وشكله، وفي فصاحته وبلاغته وعذوبته، وحلاوة ترصيعه ونفوذ وعظه، وغوصه على المعاني البديعية، وتقريبه الأشياء الغريبة فيما يشاهد من الأمور الحسية، بعبارة سريعة الفهم، بحيث يجمع المعاني الكبيرة في الكلمة اليسيرة (٤).

□□□

وكتاب «المدهش» - الذي ندرسه في هذه الصفحات - دليل كبير على تفرد ابن الجوزي في هذا الفن العظيم.. فن الوعظ..

■ كتاب المدهش:

ولقد أطلق أبو الفرج على كتابه اسم «المدهش»، وهو محق في ذلك، فهو آية من آيات الله في الوصول إلى لبّ المعنى، بأدق لفظ وأبلغه وأوجزه، وهو حافل بالمعنويات الدالة على سعة علم الإمام أبي الفرج الجوزي.. إن هذا الكتاب الذي بلغت صفحاته أكثر من خمسين

وخمسائة صفحة من القطع الكبير، بتحقيق الدكتور مراد قباني قد انقسم إلى قسمين بارزين:

● أولهما: الأبواب الأربعة الأولى، التي تعالج قضايا وثيقة الصلة بالواعظ والوعظ، لكنها ليست مباشرة في فن الوعظ، وفيها حديث عن علوم القرآن الكريم، وأبواب منتخبة من الوجوه والنظائر في المصطلحات والأدوات اللغوية، وباب في تصريف الفقه وموافقة القرآن لها.

وكلام في علوم الحديث، وفضل رسول الله محمد ﷺ، وذكر أزواجه وأولاده ومواليه ومؤذنيه، إلى آخره..

وثمة كلام في أشياء متفرقة نادرة وطريفة.. والباب الرابع منها خصه لذكر عيون التواريخ والتعريف بالأقاليم وقصص الأنبياء - ببلاغة وجيزة - حتى انتهى إلى سيرة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام..

● أما القسم الثاني؛ وهو جوهر الكتاب، فهو القسم الخاص بالمواعظ، وهو يتكون من مائة فصل.. أولها الفصل الخاص بشرح قوله تعالى ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ وآخرها الفصل الخاص بموعظة أولها: يا من أنفاسه محفوظة.. وهو الفصل المائة.. ثم أنهى ابن الجوزي كتابه بخاتمة في ثلاثة فصول أو بتعبير آخر بثلاث مواعظ أولها: «الموت مقاتل يقصد المقاتل فما ينفعك أن تقاتل» وثانيتها: موعظة أولها: «أين الذين سلبوا؟ سلبوا المال ما غلبوا... غلبوا.. عمروا ديارهم فلما تمت خربوا» وثالثتها: «عباد الله إنما الأيام طرق الجد، والساعات ركائب المجد»..

ولم يكن منهج الوعظ وما يوجبه من استحضار للآخرة والموت واستعلاء على الدنيا واستجاشة للعواطف العلوية الموصولة بخالق الكون.. لم يكن هذا المنهج بعيداً عن أية صفحة من صفحات الكتاب، حتى ما كان منها خاصاً بقصص الأنبياء أو متعلقاً بالتعريف بجانب من جوانب القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة.. إن كتابه «المدهش» كله صفحة مناجاة لله سبحانه وتعالى، وهو كله قنوت ودعاء وشوق إلى ما عند الله.. ورغبة فيما فوق هذه الدنيا - وزهد في الدنيا..

عندما يتحدث ابن الجوزي في قصة الخضر عليه السلام يقول: لما علا شرف الكليم بالتكليم كل شرف..

قال له قومه: أيّ الناس أعلم؟ فقال: أنا، ولم يقل: فيما أعلم، فابتلي فيما أخبر به وأعلم.. فقام بين يدي الخضر، كما يقوم بين يدي السليم الأعمى.. فابتدأ بسؤال: (هل أتبعك؟) فتلّقه برد: (لن)... وكمن أن موسى من لن.. - أمر قومه بالإيمان فقالوا: «لن نؤمن»... وقعدوا في التيه فقالوا: «لن نصبر» ندبوا للجهاد فقالوا «لن ندخلها» ... طرق باب (أرني) فردده حاجب (لن) (من لن تراني) ... دنا إلى الخضر للتعلّم فلغظه بلفظ (لن) ثم زاده من زاد الرد بكف (وكيف تصبر) (٥)!!

● وفي حديثه عن قصة أهل الكهف (٦) يقول:

كان رقم (كتب في قلوبهم الإيمان) قد علا على كهف قلوب أهل الكهف، فلما نصب ملكهم شرك الشرك، بان لهم خيط الفخ ففروا، وخرجوا من ضيق حصر الحبس إلى الفضاء فضاء لهم، فما راعهم في الطريق إلا راع وافقهم، فرافقهم كلبه، فأخذوا في ضربه، لكنهم ليسوا من ضربه، فصاح لسلط حاله: لا تطردوني لمباينتي جنسكم فإن معبودكم ليس من جنسكم، أنا في قبضة إثاركم أسير.. أسير إن سرتهم، وأحرس إن نمتهم، فلما دخلوا دار ضيافة العزلة، اضطجعوا على راحة الراحة من أرباب الكفر، فغلب النوم القوم (ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا) ثم يختتم كلامه عن أهل الكهف بقوله: «ليس العجب من نائم لم يعرف قدر ما مرَّ من يومه، وإنما العجب من نائم في يقظة عمره»

أما والله لو عرف الأنام

لَمَا خَلَقُوا لَمَا غَفَلُوا وَنَامُوا
لَقَدْ خَلَقُوا لَمَا لَوْ أَبْصَرْتَهُ
عَيُّونَ قُلُوبِهِمْ سَاحُوا وَهَامُوا
مَمَاتَ ثُمَّ قَبَرَ ثُمَّ حَشَرَ
وَتَوَبَّيْخَ وَأَهْوَالَ عِظَامَ
لِيَوْمِ الْحَشْرِ قَدْ خَلَقْتَ رِجَالَ
فَصَلُّوا مِنْ مَخَافَتِهِ وَصَامُوا
وَنَحْنُ إِذَا أَمَرْنَا أَوْ نَهَيْنَا
كَأَهْلِ الْكَهْفِ أَيقَظْ نِيَامَ (٧)

ومن هذين النموذجين نرى صدق ما ذكرناه من أن كتاب المدهش كله إنما هو وقفة دعاء وقنوت، توجه بها ابن الجوزي إلى الله سبحانه وتعالى، وهو - في كل سطره وما بين سطره - سباحات فكر، وصلوات واستغفار وأناة، وصور من الخشوع والخضوع، النابعة من قلب يحترق شوقاً، ويتفاعل إيماناً، بكل ما تحمله معاني الشوق إلى الله، ومعاني الإيمان العلوي الخالص.. وهو في النهاية نموذج أدبي شعري ونثري رفيع، يقدم صورة من صور تألق الوعظ بعمامة في تراثنا الأدبي الإسلامي.

إن عظمة أسلافنا الذين صنعوا حضارتنا كان في هذا المنهج الذي يمزج بين رهينة الليل وفروسية النهار، ويأخذ من عبوديته الوقود لمعاملاته، ومن استحضار الآخرة الحضور الأزكى والأعلى والأقوى في الدنيا..

لقد كانوا علماء يوجهون علمهم لعمار الدنيا باسم الله، وتحت راية عبوديته، ولم يكن علم الإسلام، ولا علم الدنيا ترفاً أو فكراً محضاً موجهاً للاستعلاء، أو المنفعة الشخصية أو الوطنية أو القومية.. ولقد آتاهم الله بهذا المنهج الشمولية، والفقه الصحيح، والعلم الواسع.. كما بارك لهم في عملهم، وأعطاهم قيادة الحضارة البشرية.. وما سقط العلم الإسلامي إلا يوم أن وجهه بعضهم للدنيا وقطعوه عن الآخرة.. ووجهه آخرون - بزعمهم - للآخرة وقطعوه عن الدنيا.. مع أنهما في الإسلام متلازمان، تلازم الروح والجسد.



فإذا ما انتقلنا إلى القسم الثاني الذي يتكون من مائة فصل، والذي بسطه المؤلف في أكثر من أربع مائة صفحة يتجلى لنا ابن الجوزي إماماً في أدب المناجاة والابتهالات..

ففي وقفته عند قوله تعالى «هو الأول والآخر» وهذا هو عنوان الفصل الأول من القسم الثاني عنده.. يتوجه ابن الجوزي إلى الذات العلية بهذه الابتهالات الفريدة... (٨) «سبحان من أقام من كل موجود دليلاً على عزته، ونصب علم الهدى على باب محبته.. الأكوان كلها تنطق

بالدليل على وحدانيته، وكل موافق ومخالف يمضي تحت مشيئته، إن رفعت بصر الفكر ترى دائرة الفلك في قبضته، وتبصر شمس النهار وبدر الدجى يجريان في بحر قدرته، والكواكب قد اصطفت كالمواكب على مناكب تسخير سطوته، فمنها رجوم للشياطين ترميهم فترميهم عن حمى حمايته، ومنها سطور في المهامه يقرأها المسافر في سفر سفرته. وإن خففت البصر رأيت الأرض ممسكة بحكمة حكمته.. كل قطر منها محروس بأطواره عن حركته، فإذا ضجت عطاشها ثار السحاب من بركة بركته.

«ونفخ في صور الرعد لإحياء صور النبات من حضرته، فيبدو نور النور يهتز طربا بخزامي رحمته» ومنها قوله أيضاً: (٩)

«نظر بعين الاختيار إلى آدم، فحظي بسجود ملائكته، وإلى ابنه شيث فأقامه في منزلته. وإلى إدريس فأحتال بالهامه على جنته، وإلى نوح فنجا من الغرق بسفينته، وإلى هود فعاد على عاد شؤم مخالفته، وإلى صالح فتمخضت صخرة بناقته، وإلى إبراهيم فتبختر في حلة خلته، وإلى إسماعيل فأعان الخليل في بناء كعبته، وإلى لوط فنجاه وأهله من عشيرته، وإلى شعيب فأعطاه الفصاحة في خطبته، وإلى يعقوب فرد حبيبه مع حبيبته، وإلى يوسف فأراه البرهان في همته».

● وفي أدب المناجاة في الحج يبدع ابن الجوزي، ويستعرض منازل الحج ومراحلها بأدبه الرفيع، الذي يلبس ثوب المناجاة، معتمداً على الشعر والنثر معاً:

لله درمني وما جمعت
وبكا الأحبة ليلة النفر
ثم اغتدوا فرقا هنا وهنا
يتألاحظون بأعين الذكر
ما للمضاجع لا تلائمني
وكان قلبي ليس في صدري (١٠).

● حج جعفر الصادق فأراد أن يلبي فتغير وجهه، فقيل: مالك يا ابن رسول الله؟ فقال: أريد أن ألبى فأخاف

أن أسمع غير الجواب.

● وقف مطرف وبكر، فقال مطرف: اللهم لا تردهم من أجلي، وقال بكر: ما أشرفه من مقام لولا أنني قهيم!! وقام الفضيل بعرفة، فشغله البكاء عن الدعاء، فلما كادت الشمس تغرب قال: واسوأ تاه منك وإن عفوت!!

● وفي الفصل الخامس يحدث نفسه ويناجي ربه (١١)، فيقول:

ما حظي الدينار بنقش اسم الملك حتى صبرت سبيكته
على التردد إلى النار، فنفث عنها كل كدر، ثم صبرت على تقطيعها دنانير، ثم على ضربها على السكة، فحينئذ ظهر عليها رقم النقش:

«كتب في قلوبهم الإيمان»

لا تطردني فليس لي عنك غنى
هذا نفسي إذا أردت الثمنا

■ من طلب الأنفس هجر الألد. من اهتم بالجواهر نسي العرض، يا صفراء يا بيضاء غري غيري (يقصد الدنيا).. من أجل هواكم عشقت العشقا

قلبي كلف ودمعتي ما ترقى
في حبكم يهون ما قد ألقى
ما يحصل بالنعيم من لا يشقى

● وفي الفصل السادس:

أنا المقر على نفسي بالخيانة، أنا الشاهد عليها بالجناية
أعف عني وأقلني عثرتي
يا عتادي لملأت الزمن
لا تعاقبني فقد عاقبني
ندم أقلق روحي في البسطن
لا تطير وسنا عن مقلتي
أنت أهديت لها حلو الوسن (١٢).

● وفي ختام الفصل الثامن يتقلب في رجائه ومناجاته بين طرائف الصالحين:
يا منفدا ماء الجفون

وكننت أنفقه عليه
إن لم تكن عيني فأننت
أعز من نظرت إليه

كانوا إذا ضيقَ الخوفُ عليهم الخناقَ نفسوه بالرجاء، فكان أبو سليمان يقول: إلهي إن طالبتني بذنوبي طالبتك بكرمك، وإن أسكنتني النار بين أعدائك لأخبرنهم أنني كنت أحبك..

وكان يحيى بن معاذ يقول: إن قال لي يوم القيامة: عبدي ما عُركَ بي؟ قلت: إلهي: بركَ بي.. (١٣).

● وفي بعض ما ورد من روائع الفصل الثامن عشر يتخيل ابن الجوزي عتاب الله سبحانه وتعالى للإنسان.. فكانه كما يقول ابن الجوزي يقول له: يا مُختار الكون وما يعرف قدر نفسه، أما أسجدتُ الملائكة بالأمس لك؟ وجعلتهم اليوم في خدمتك، لمّا تكبرَ عليك إبليس، وقد عبدني سنين طويلة - طردته.

● ويقول ابن الجوزي في الموعظة الثانية والثلاثين:

لا بد والله من قلق وحرقة، إما في زاوية التعبد أو في هاوية الطرد، إما أن تحرق قلبك بنار الندم على التقصير والشوق إلى لقاء الحبيب، وإلا فنار جهنم أشد حراً..

شجاك الفراق فما تصنع
أصببر للبين أم تجزع
إذا كنت تبكي وهم جيبرة

فماذا تقول إذا ودعوا
القلق القلق يا من سلب قلبه، والبكاء البكاء يا من عظم ذنبه.

كان الشبلي يقول في مناجاته: ليت شعري ما اسمي عندك يا علام الغيوب، وما أنت صانع في ذنوبي يا غفار الذنوب؟ وبم تخطم عملي يا مقلب القلوب (١٤).

كان داود الطائي ينادي بالليل: همك عطّل كل الهموم، وحالف ببني وبين السهاد، وشوقي إلى النظر إليك حال بيني وبين اللذات، فأنا في سجنك أيها الكريم مطلوب (١٥).

- كان لقوم جارية فأخرجوها إلى الخناس فأقامت أياماً

تبكي، ثم بعثت إلى سادتها تقول: بحرمة الصحبة ردوني فقد ألفتكم.. يا هذا قف في الدياجي وامتد يد الدّل، وقل: قد كانت لي خدمة، فعرض تفريط أوجب البعد، فبحرمة قديم الوصل ردوني فقد ألفتكم (١٦).

□□□

- ويتألق فن المناجاة عند ابن الجوزي في غير موضع من فصوله الوعظية، وما نحن أولاً نراه في وعظيته الثانية والسبعين يقول لربه:

اللهم نور دنيانا بنور من توفيقك، واقطع أيامنا في الاتصال بك، وانظم شتاتنا في سلك طاعتك، فأنت أعلم بتلقيق المقترف، اللهم قو من أطفال التوبة بلبان الصبر، أرفق بمرضى الهوى في مارستان البلاء، افتح مسامع الأفهام لقبول ما ينفع، سلم سياراة الأفكار من قاطع الطريق، احرس طلائع المجاهدة من خديعة كمين، احفظ شجعان الغرائم من شر هزيمة، وقّع على قصص الإنابة بقلم العفو، لا تسلط جاهل الطبع على عالم القلب، لا تبدل نعيم عيش الروح بجحيم حرّ النفس، لا تمت حي العلم في حي الجهل، أخرجنا إلى نور اليقين من هذا الظلام، لا تجعلنا ممن رأى الصبح فنام، لا تؤاخذنا بقدر ذنوبنا، فإنك قلت: «ولا تنسوا الفضل بينكم» (١٧) وأعجباً لمن عرفك ثم أحب غيرك، ولمن سمع مناديك ثم تأخر عنك.

حرام عليّ العيش مادمت غصبانا
ومالم يعد عني رضاك كما كانا
فأحسن فإني قد أسأت ولم تزل

تعوّدني عند الإساءة غفرانا
إلهي، لا تعذب نفساً قد عذّبها الخوف منك، ولا تخرس لساناً كل ما يروي عنك، ولا تقذّ بصراً طالما يبكي لك، ولا تخب رجاء هو منوط بك، إلهي، ضع في ضعفي قوة من منك، ودع في كفي كفي عن غيرك. ارحم عبدة تترقرق على مافاتك منك، برّد كبدًا تحترق على بعدها عنك (١٩).

□□□

إنها مائة فصل في الابتهاال والتضرع والمناجاة دبجها قلم من أروع الأقلام التي أخرجتها حضارتنا الإسلامية عندما كان النبع صافياً، وكان الاتجاه صادقاً.. صادقا مع

(٧) المدهش ١٢٢

(٨) المدهش ١٣٩

(٩) المدهش ١٣٩

(١٠) المدهش ١٤٧

(١١) المدهش في ١٥٨، ١٥٧

(١٢) المدهش ١٦٥

(١٣) المدهش ١٧٣

(١٤) المدهش ٢٠٨

(١٥) المدهش ٢٥٥

(١٦) المدهش ٢٦٤

(١٧) المدهش ص ٣٣٢ وجدير بالذكر أنه في ص ٢٧٤ يقول

ابن

الجوزي

رحمه الله:

إنما خلقت

الدنيا

لتجوزها،

لالتحوزها،

ولتعبرها

لالتعمرها

(الفصل

الخامس

والثلاثون)

ونحن لا

نقره على

هذا بل

الصحيح

عندنا (إنما

خلقت

الدنيا

لتحوزها

وتجوزها

وتعمرها

وتعبرها)

فهذا هو

التصور

الإسلامي

للزهد!

(١٨)

المدهش

٢٦١

(١٩)

سورة

البقرة الآية ٢٣٧

(٢٠) المدهش ٤١٥، ٤١٤

الله.. وصادقا مع النفس.. وصادقا مع الكون والإنسان..
وهكذا قدم الإمام ابن الجوزي من خلال كتابه (المدهش)
نموذجاً للمسلم الرباني، وللأدب الإسلامي الذي يتألق في
الصعود بالإنسان إلى هذا المستوى الكوني الفسيح في
مناجاة الله..

- وإن كتاب المدهش - بكامله - قطعة أدبية (نثرية
وشعرية) رائعة، تمثل أسمى ما وصل إليه الإبداع
الإسلامي في أدب المناجاة.. وهو يمثل لوحة جمالية ذات
إيقاعات وألوان منسجمة ومتكاملة، وتخلو من أي شذوذ..
- ولقد أبرز لنا هذا الكتاب العظيم كيف تتألق روح
المسلم، وكيف تنسجم مع عقله ولسانه وقلمه ولغته
العربية البليغة..

- ومن خلال هذا الكتاب يدرك المسلم دوره ومكانته،
ويدرك أحقية الدين الحق الذي ينتسب إليه... ويرتفع من
خلال أدب ابن الجوزي - إلى مستوى دينه الرفيع.. بل
يندمج بكل كيانه في مناجاة واعية صادقة لله. مبدع
الكون، ومن يملك مفتح الغيب..
أوليس هذا أرفع شرف للإنسان... أن يخاطب الله،
ويناجيه، ويدعوه

.. كما يناجي الحبيب حبيبه، والعبد سيده: «إذا سألك
عبادي عني فأني قريب، أجيب دعوة الداعي إذا دعان،
فليستجيبوا لي، وليؤمنوا بي، لعلهم يرشدون» (البقرة
١٨٦)..

- بلى: إنه أرفع شرف.. وأزكى مكان.. إنه المعراج إلى
الله بالروح والقلب والوجدان....

■ الهوامش:

(١) انظر في ترجمته: وفيات الأعيان، وذيل الروضتين،
والبداية والنهاية، وابن الوردي، وتذكرة الحفاظ، وغيرها.
(٢) انظر ترجمته في «وفيات الأعيان» لابن خلكان.
(٣) ضبطه وحققه الدكتور مروان قباني، ونشرته دار الكتب
العلمية ببيروت، وقد اعتمدنا الطبعة الأولى الصادرة سنة ١٤٠١
هـ

(٤) مقدمة تلبيس إبليس نشر دار الكتب العلمية ببيروت
ط ١٤٠٣/٣/١ هـ

(٥) المدهش: الطبعة السابقة ص ١٠٦، ١٠٧

(٦) المدهش: الطبعة السابقة ص ١٢١



كيف يأهبط؟

شعر: أحمد محمود مبارك

عَشَّشَتْ فِي ربوعنا المأساة
وتهاوت من العلا الرايات
أيُّها المَجْدُ يا غراسَ جُدود
راققتْ نَفْعَ خَيْلِهِمْ مَكْرُمَاتُ
كَيْفَ بَعْنَاكَ واجْتَنَيْنَا المَآسِي؟
كَيْفَ هُنَا وَنُكْسَتْ هَامَاتُ؟
أُمَّةٌ شَعَّ فِي الوجودِ هُداها
وَأُضِيئَتْ بِشَمْسِهَا الظلماتُ.
كَيْفَ أَضَحَتْ عَلَى يَدِينَا هَوَاناً
وخنوعاً بَعِزَّهَا يِقَاتُ!
كَيْفَ يَا مَجْدُ رِيحُنَا قَدْ تَلَاشَتْ
وَعَزَا مُقَلَّةَ الرِّشَادِ سُبَاتُ؟
وَيَحْنَا إِنَّا هَدَمْنَا حُصُوناً
أَمَنَاتٍ فَفَارَقْتَنَا النِّجَاةُ
مَا أَضَاعَ الشُّمُوخُ فِيْنَا عَدُوً
إِنَّمَا نَحْنُ بِالْخَنُوعِ جُنَاةُ
أَه.. يَا مَجْدَ يَعْزُبُ. أَيْنَ سَيْفُ
كَانَ «لَابِنِ الْوَلِيدِ» أَيْنَ الْأَبَاةُ؟
أَيْنَ مَنْ حِينَمَا تَعَالَى نِدَاءُ
فِي رَبِّي الرُّومِ أَطْلَقْتَهُ فَتَاةُ
قَادَ جَيْشَ الْإِبَاءِ يَسْعَى إِلَيْهَا
تَتَلَخَّيَ فِي صَدْرِهِ الْجُمَرَاتُ

وَيَحْنَا كُلَّ بَرَهَةٍ يَسْفِكُ الصَّرُّ
بُ دِمَانَا وَتُغْصِبُ الْحَرَمَاتُ
وَاشْتَعَالَ الْإِبَاءُ فِيْنَا كَلَامُ
هَلْ تُعِيدُ الْكَرَامَةَ الْكَلِمَاتُ؟!
أَهْ يَا قُدْسَنَا الْحَبِيبَ سَلَامُ
يَارِوَاءَ أودتْ بِهِ النُّكْبَاتُ
أَيْنَ مِنْ ضَعْفِنَا إِبَاءُ «صَلَاحُ»*
أَيْنَ مِنَّا عَلَى رَبَّاكِ صَلَاةُ
وَسَيُوفُ الْجِهَادِ بِالْهَوْنِ ثَلَّتْ
وَبِمَسْرَى الرِّسُولِ عَاتِ الطُّغَاةُ
وَبَنُو خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ..
خُلْفٌ وَغَفْلَةٌ وَشَتَاتُ
أُمْتِي إِنَّمَا الْخِلَاصُ «كِتَابُ»
نَبْضُ آيَاتِهِ الْهُدَى وَالنَّجَاةُ
بَيْنَ أَيْدِينَا غَيْرَ أَنَّا غَفَاةُ
أَبْعَدْتُنَا عَنْ هَدْيِهِ غَفَوَاتُ
فَارْجِعِي أُمَّةٌ تَقُودُ خَطَاها
رَايَةُ الدِّينِ. تَزْهَرُ الْأَمْنِيَّاتُ
وَأَفِيقِي مِنْ غَفْوَةٍ فِيْ دُرُوبِ
مُوحِشَاتٍ يَجْتَنُو عَلَيْهَا الْمَوَاتُ
لَيْسَ غَيْرُ الْإِسْلَامِ رَبُّ نَجَاةِ
بُضِيَاهُ تُضَاءُ فِيْنَا الْحَيَاةُ

* صلاح الدين الأيوبي

قصة

قصيرة

بقلم:

عبد العزيز سليمان الأحيدب

لقد وجد أمين في عيادته التي يعمل فيها آخر النهار ما يشغله عن التفكير بأمة التي سافرت بصحبة شقيقه الأكبر برهان منذ قرابة شهر إلى إحدى دول الخليج، حيث عين برهان مندوباً لإحدى الشركات الهندية التي يملكها ثري مسلم.

أما زوج أمين وأولاده الثلاثة فقد أخذتهم يد المنون في حادث سيارة حينما كانوا متوجهين لزيارة أهلها في قرية قريبة من سورات.

وعلى الرغم من أن أميناً كان وحيداً، إلا أن يومه كان مليئاً، فهو مشغول منذ الصباح الباكر، حيث يعمل في المستشفى الحكومي، ثم يخلد للراحة قبيل صلاة العصر، وبعد صلاة العصر إلى ما بعد صلاة العشاء يعمل في عيادته الخاصة، ومع تزامم الأعمال عليه فهو يجدها مؤنسة له.

منذ أن افتتح الدكتور أمين عيادته الخاصة انقطع تماماً عن الحياة العامة، فلم يعد يجد في وقته متسعاً لسماع الإذاعة، ولا لمطالعة الصحف وقراءة المجلات والدوريات؛ حتى الطبية منها.

صبيحة ذات يوم، وبينما الدكتور أمين كان يهتم بالتوجه صوب المستشفى فاجأه ساعي البريد برسالة، أخذها أمين ووضعها في جيبه ليقرأها فيما بعد، جاء وقت الراحة والغداء، أخذ أمين الرسالة من جيبه، فتحها وبدأ يقرأ ما فيها، علته علامات الحيرة وأمارات التعجب! كانت الرسالة من أمه تطلب منه الحضور إليها حيث تسكن على وجه العجل وبأسرع ما يمكن!! كان لأمين الحق في الحيرة، إذ كان ديدن أمه أن تحدثه هاتفياً؛ وهذه أول رسالة تصله منها، ثم ماذا

الموت الأسود

ها قد أتم أمين العقد الثالث من عمره، ودخل عقده الرابع، وهو كما هو؛ لم تغير السنون شيئاً من طباعه وعاداته، فما زال أمين - كما عرفه أصحابه - متواضعاً لين الجانب؛ وهو الذي نال شهادة الدكتوراه في تخصص الأمراض الصدرية. وما فتى أمين مثلاً يحتذى للشباب المسلم، فقد آتاه الله بسطة في العلم الشرعي والدنيوي، وقد عمر جل أوقاته بعمل الصالحات وبالتزود من الطاعات.

وقد تعجب حين تعلم أن أميناً - الطبيب البارع الذائع الصيت - في بلده الهندية «سورات» مازال يعيش في الحي الذي ولد فيه، وترعرع بين جنباته، ذلك الحي الشعبي، الذي لا يسكنه إلا الفقراء والمعدمون، ولطالما كان الدكتور أمين يجيب عن ذلك قائلاً: «باستطاعتي السكنى في أرقى أحياء المدينة، ومجاورة كبار الساسة وعلية القوم، لكن لن أجد عوضاً عن هذا الحي؛ الذي ترتفع فيه «الله أكبر» مع كل أذان، والذي تكتظ مساجده بالمصلين أوقات الصلاة، ويغشاها الشباب المسلم طلباً للعلم الشرعي على أيدي مشايخ البلدة، فهذا الحي غالبية من يقطنه هم من المسلمين، وهذا ما لن أجده في الأحياء الراقية التي يسكنها الأثرياء وأعيان المدينة من الهندوس، وخليط من النصاري والبوذيين».

كان أمين على وعي بما يقاسيه المسلمون من فقر وفاقة، لذا لم يبخل عليهم بما يستطيع بذله، إذ جعل يوماً من أيام الأسبوع في عيادته التي افتتحها بعد أن حصل على شهادة الدكتوراه لعلاج المسلمين فيه بلا مقابل؛ بل إنه ما اختار تخصص الأمراض الصدرية إلا لما يعلمه من تفشي الأمراض الرئوية - وعلى رأسها السل - بين المسلمين.

حدث لتطلب منه الحضور على عجل؟! لقد أقلت هذه الرسالة أمينا وأشغلت ذهنه، وشئت فكره، وأدخلته في دوامة من الأفكار، بيد أنه تذكر أن هاتف شقيقة الأكبر برهان في الشركة التي يعمل فيها موجود في محفظته، فعزم على قطع الشك باليقين. يمم أمين شطر أقرب مركز للهاتف وأدار القرص وانتظر لحظة، رفع الطرف المقابل السماعه وأجاب باللغة الهندية، ألقى عليه أمين التحية باللغة الهندية، تلثم المتحدث على الجهة الأخرى قليلا ثم رد التحية باللغة الإنجليزية، سألته أمين بالإنجليزية أين برهان مندوب الشركة؟ أجاب الآخر إنه مشغول الآن، اتصل فيما بعد..

أمين: بلغه أن أخاه أمينا قد هاتفه من الهند، وأرجو منك أن تطلب منه الاتصال بي في أسرع وقت، أنهى أمين المكالمه، وخالجه الحيرة من جديد، لماذا أجاب باللغة الهندية أول الأمر ثم تابع الحديث باللغة الإنجليزية؟! أمر غريب، ثم نبذة صوته ليست غريبة علي، إنها تشبه نبذة صوت برهان، هل يكون هو؟! لا.. ليس هو، فلا أعلم سببا يجعله يخفي شخصه.

استمر أمين في تحليل أحداث اليوم، الرسالة.. المكالمه الهاتفية.. وما قد حصل، ما سبب هذا.. وما.. وما انقطع حبل أفكاره إلا حين دخل عليه المكتب زميله في العمل الدكتور جون وألقى عليه التحية وبدأ يتجاذب أطراف الحديث معه.

- أمين، أظن أن وزارة الصحة ستستدعيننا - نحن أطباء الأمراض الصدرية - لنكون ضمن لجنة الوقاية الصحية.

- ما غرض هذه اللجنة يا دكتور جون؟

- يبدو أنك لا تقرأ الجرائد بل ولا تسمع الإذاعة أيضا.

- نعم، أنا كذلك، ولكن ما هي القضية؟

- أنا مستعجل الآن، استمع إلى نشرة أخبار الإذاعة،

وستعرف كل شيء.. كل شيء. ومن حسن الطالع لم يبق

من الوقت على موعد نشرة الأخبار إلا بضع دقائق قضاها

أمين على أحر من الجمر، بدأت نشرة الأخبار، كان الخبر

الرئيس: «الموت الأسود» مرض الطاعون الرئوي يعود من

جديد في مدينة «سورات»، الحكومة أعلنت حالة الطوارئ،

وبدأت العمل من أجل تشكيل لجنة صحية لمعالجة حالات

الطاعون الرئوي، ومتابعة الحالات المشتبه فيها، اللجنة

ستضم أطباء الأمراض الصدرية في سورات، كما سيتم

الاستعانة بأطباء من الولايات الهندية الأخرى...

بدأت أفهم، نعم لقد فهمت كل شيء.. كل شيء، الرسالة..

المكالمه الهاتفية.. كلام الدكتور جون.. ذلك المريض الذي.. نعم لقد فهمت، أرادت أمي أن أتجو بنفسي من هذا المرض القاتل، لذلك لم تحدثني هاتفيا مخافة أن أسألها عن السبب، وهي تعلم أنني سأرفض متى ما علمت السبب. نعم، لقد عرفت ماذا جرى في المكالمه الهاتفية، لقد كان شقيقي برهان.. حتما لقد كان هو.. حدثني بالهندية فلما عرف صوتي تلثم وبدأ يخاطبني بالإنجليزية.. نعم لقد فهمت كلام الدكتور جون.. ولكن ذلك المريض.. لقد أخطأت في حقه.. أخطأت في تشخيص مرضه.. كنت أحسبه أحد أمراض الرئة الشائعة رغم اختلاف الأعراض عنده.. كيف أسامح نفسي على ما اقترفت يداي؟! لكنه أمر طبيعى أن أخطئ، ولم لا أخطئ في التشخيص ونحن لم ندرس الطاعون الرئوي إلا في صفحات

الكتب، ولم يسبق لي أن رأيت حالة طاعون

رئوي رأي العين، وقد أخبرونا أن المرض تم

القضاء عليه نهائيا، ولكن كيف عاد؟! إنها

قدرة الله وقدر الله النافذ.. وكيف لم أعلم

عن عودة الطاعون الرئوي في

مدينتنا «سورات» إلا بعد بضعة

أيام هي بلا شك الفترة التي

استغرقتها

رسالة أمي

لتصلني.

يا لك

من أم

عطوف، أردت

لي النجاة من هذا

المرض المعدي،

ولكن أمام.. أمام

كيف أغادر

سورات؟ وأنا

أعلم قول الرسول

«الطاعون رجز

أرسل على طائفة من بني

إسرائيل، وعلى من كان قبلكم، فإذا

سمعتهم به بارض، فلا تدخلوا عليه،

وإذا وقع بارض وأنتم بها فلا تخرجوا

منها فرارا منه». أمام.. لقد نهانا

رسول الله ﷺ عن الخروج من البلد



إذا ظهر فيها الطاعون.. أماء.. إن في نهيه ﷺ حملا للنفوس على الثقة بالله، والتوكل عليه، والصبر على أقضيته، والرضى بها... أماء.. وفي ذلك تحرز من نقل المرض للآخرين.. أماء.. أنا راض بقدر الله وصابر على حكمه، وسأبذل جهدي في محاربة الطاعون ومنع انتشاره بين سكان بلدي سورات.

هذه الليلة لم تنق عينا أمين للنوم طعما، فقد أكب على ما لديه من الكتب الطبية والتي احتوتها أرفف مكتبته العامرة، وراح يقلب صفحاتها، ويبحث بين طياتها عن مرض الطاعون الرئوي، لكنه لم يجد لمرض الطاعون ذكرا في الكتب الجديدة، فما من أحد إلا وقد أيقن بأن الطاعون قد توارى إلى الأبد، وأصبح من أمراض الماضي، لذا كان لزاما على أمين أن يبحث في ثايات مكتبته أيام الدراسة في كلية الطب، والتي مضى عليها زمن طويل لم تفتح، لقد غطاها الغبار، وطاب للعناكب أن تنسج بيوتها حولها، ومن يسر الله أن وقع بصر أمين، ومن أول وهلة، على كتاب «علم الأمراض»، بحث أمين في الفهرس عن مرض الطاعون الرئوي.. لقد وجد، فتح الصفحة.. بدأ يقرأ..

.. ومن أعراض مرض الطاعون الرئوي السعال، ويسبق ذلك ظهور دمل تحت الإبط، وأحيانا في اليدين والساقين، وينتشر المرض عن طريق الهواء الملوث بالجراثيم، الذي يخرج المريض أثناء السعال أو التنفس.

أخذ قلب أمين في الخفقان، وبدأ العرق يتصبب من جبينه، إذ قد لاحظ وجود دمل في إبطيه كما أن السعال قد ثقلت وطاته عليه في الآونة الأخيرة.

«هل أصبت بالطاعون الرئوي؟».. يبدو الأمر كذلك، فالأعراض موجودة لدي.. ماذا أفعل؟.. هل أنتظر حتى أتأكد؟.. ولكن إن كنت أصبت بالمرض فعلا فربما أعدي المرضى الذين يراجعونني في العيادة والمستشفى... لا.. لا بد أن أذهب إلى اللجنة التي كونتها وزارة الصحة حتى يقوموا بعمل التحاليل اللازمة، ولكن إن ثبت أمر إصابتي بالطاعون فسيتم الحجر عليّ صحيا، ولن يسمح لأحد بزيارتي.. ولكن لا بد من الفحص ولا مناص منه.

لا يزال هناك متسع من الوقت للتفكير هل أذهب أم لا؟ فالليل طويل، وما أطول الليل على من لم ينم، لم يغمض أمين في تلك الليلة جفن، لقد أمضى ليلته ساهرا وهو يريد أن ينام، متعبا وهو يروم الراحة، قلقا مشوش الأفكار، تلبدت سماء فكره بالغيوم وهو يريد بها مشمسة. قضى أمين

الساعات الطوال على فراشه ليس بالنائم ولا هو يقظان.

- لماذا أنا في حيرة من أمري؟ هكذا بدأ أمين يجادل نفسه، ألست معروفا بين أندادي بالسرعة في اتخاذ القرارات؟ فلماذا، أنا الآن حائر في أمر أحسبه سهلا؟ ولكن هل أفعلها؟ وهل أذهب طائعا مختارا تحملني قدمي إلى السجن؟ لا، ليس سجننا حقيقيا ولكنه أشبه بالسجن، وكأني من عتاة المجرمين وأكابر المفسدين، بل هم أفضل حالا مني!! هم يغيبون في السجن عقابا لهم على جرم اقترفوه، أو ذنب فعلوه، وأنا... وأنا أذهب إلى ما يشبه السجن بلا جرم أو خطيئة. هكذا أمضى أمين ليلته تلك يحاور نفسه وتحاوره نفسه، يأتي بسبب، فتتقضى أقواله بسبب آخر، يغلبها تارة وتغلبه تارات أخرى.

ما إن بزغت أشعة الشمس معلنة طلوع النهار، حتى توجه الدكتور أمين إلى اللجنة الصحية، وقبل ذلك هاتف المستشفى معتذرا عن عدم المجيء للعمل هذا اليوم.

وصل الدكتور أمين إلى اللجنة الصحية وعرف بنفسه، فرحب به مدير اللجنة، ثم خاطبه قائلا: كم أشكرك على مجيئك، فأنت أول الأطباء وصولا، فنحن لم نرسل قائمة الأطباء الذين سيعملون مع المستشفى الذي تعمل فيه إلا البارحة، لكن الدكتور أمين قاطعه قبل أن يتم كلامه: أنا يا سعادة المدير ما جئت هنا بصفتي طبيبا، بل جئت هنا بصفتي مريضا، فعندي أعراض تتوافق مع ما هو معروف من أعراض الطاعون الرئوي؛ وأريد عمل التحاليل وإجراء الفحوصات.

تم عمل ما يلزم، وأمر الدكتور أمين بالمكوث في الحجر الصحي معزولا عن الآخرين، حتى تظهر نتائج الفحوصات.. مرت ساعات والدكتور أمين ينتظر، ويقاسي آلام الانتظار.. لقد ثقلت عليه الساعات، وطالت دقائقها، وجثم وقت الانتظار على صدره، فتقاربت أنفاسه، وازداد خفقان قلبه، وأحس بركبتيه تصطكان، يقعد فلا يطيق القعود، ويقوم حتى يمل القيام.. وبينما هو كذلك إذا به يسمع صرير الباب، ويبصر المدير أماما واقفا.

- دكتور أمين، لقد أثبتت التحاليل إصابتك بمرض الطاعون الرئوي ولا بد من بقاءك هنا.. في الحجر الصحي.

- إنا لله وإنا إليه راجعون، لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم أجرني في مصيبي واخلفني خيرا منها، حضرة المدير لست أمانع في أن أبقى في الحجر الصحي.

- أشكرك يا دكتور أمين على هذا العمل الذي سيسهم في

هذا الإسلام.. وبدأ يحدثه عن الإسلام ونبيه وتعاليمه مرة بعد مرة ولم يمنعه المرض من هذا - حتى وجد الدكتور جون في نفسه رغبة شديدة في اعتناق هذا الدين الذي لم يكن غريباً عليه كل الغربة، وبالفعل لقنه الدكتور أمين الشهادتين واختار له اسم عبدالله، وعلمه ما يجب عليه بعد دخوله الإسلام.

ورغم أن الدكتور عبدالله لم يمض على إسلامه إلا أيام معدودات، فقد تعلم من أمين الكثير والكثير عن الإسلام وأحكامه.

كان أمين يركز على غرس العقيدة الخالصة من الشوائب في نفس عبدالله، حتى إذا اطمأن أمين إلى تشرب عبدالله إكسير التوحيد، عمد إلى تحبيبه العبادة، ثم جعل يربط تصرفاته بروح الإسلام.

دخل عبدالله - كعادته - لينهل من معين الإسلام الصافي على يد شيخه أمين، فوجده شاخص البصر، مرتخي الأطراف، ساكن النفس.. أمين.. أمين أنت متعب؟.. لا إجابة، بادر عبدالله، وهو الطبيب الحاذق، إلى أمين ليفحصه.. وقد فحصه..

- إنها الحقيقة التي كنت أخافها.. لقد مات من جعله الله سبباً في هدايتي.. اغرورقت عينا عبدالله بالدموع..

أراد أن يأخذ منديلاً يجفف به ما جادت به عيناه.. فإذا به يجد ظرفين مكتوب على أحدهما.. رسالة إلى أخي عبدالله..

بدأ عبدالله يقرأ الورقة التي في داخل الظرف.

«أخي عبدالله.. أوصيك بتقوى الله.. ثم استحلفك الله ألا تحزن على فراقى وألا تجزع لموتي، فكل البشر سائرون على هذا الدرب.

أخي عبدالله: أوصيك باثنتين: أوصيك أن تخصصني بصالح الدعاء، وأوصيك أن ترسل الظرف الآخر إلى أمي، وفقاً للعنوان المكتوب على الغلاف.

أخي عبدالله: لقد عرفتكم يا عبدالله منذ سنتين منذ أن التحقت بالمستشفى، وأنت تعلم أننا قلما نلتقي في المستشفى، ومع ذلك فليس هذا بعذر لتقصيري في دعوتك للإسلام من قبل، ولكن أما رأيت كيف أثر فيك موقف النابغ من صميم إسلامي، لذا فأحرص - رعاك الله - كل الحرص أن تجعل من نفسك قدوة صالحة للآخرين.. والله أسأل أن يجمعني بك في جنات عدن عند مليك مقتدر..»

لم ينته عبدالله من قراءة الرسالة حتى تخضلت لحيته بالدموع.

منع العدوى والحد من انتشار المرض بين سكان مدينتنا. مكث أمين في الحجر الصحي في غرفة معزولة ليس معه أحد، ولا يرى فيها أحد إلا الأطباء، وحتى هؤلاء الأطباء الذين لا يراهم إلا مرة أو مرتين في اليوم يدخلون عليه، وقد لثموا أفواههم وأنوفهم بكمامات، مخافة أن ينتقل إليهم المرض، ثم هم يحرسون على أن يؤدوا ما يريدون عمله بأتم السرعة، ثم يخرجون تاركين أمينا وحده بلا أنيس أو جليس، يقاسي آلام الوحدة كما يقاسي آلام المرض.

مضت بضعة أيام بدأ خلالها الطاعون ينخر في جسم أمين، وأخذت صحته تتردى وجسمه يعتل، ولا يزيد مرور الأيام صحة أمين إلا نقصاً. لقد طال عليه المرض حتى مل فراشه ومله فراشه، فهو يود أن ينتهي من هذا الوضع المتأرجح بين الموت والحياة كلياً. بين النوم القصير والارق الطويل. ويوما بعد يوم تزداد صحة أمين سوءاً، ولو أن أحداً من رفاقه الذين فارقهم منذ عشرة أشهر قد وقع بصره عليه لاستحال أن يعرفه إلا بعد التأمل.. إذ لم يبق السقام - على قرب عهده به - من نصارته المألوفة أثراً.. اللهم إلا عينيه بصفتيهما، فلم تنل منهما الأوجاع ولم تحدث في إحائيهما المطمئن أي تغير. لكن كل ذلك ما كان ليضعف من إيمان أمين الراسخ وتوكله على الله وتضرعه إليه أن يعجل له أحد الأمرين: إما الموت فيكون شهيداً لما يعلمه من قوله ﷺ: «الطاعون شهادة لكل مسلم» أو الشفاء التام والبرء من هذا المرض.

لم يكن يسمح لأحد بزيارته في هذا الحجر الصحي، لكن شخصاً واحداً استطاع زيارته، وما ذلك إلا لكونه أحد الأطباء العاملين بالحجر، ذلك هو الدكتور جون زميل أمين في المستشفى.

قال جون مخاطباً أمين: لقد ساءني ما أصابك، ولكن ما الذي دفعك لأن تأتي طوعاً إلى هذا الحجر، وإن شئت فسمه السجن الاختياري؟

- إسلامي هو الذي دفعني لعمل كل هذا، فأنا الآن لن أكون ناقلاً للطاعون، ولن أكون سبباً في أن تفقد أسرة بعد مشيئة الله وإرادته - عائلتها بسببي، أو أن يفقد ابن أمه، أو بنت أباه، أو امرأة بعلمها.

- أدينكم بأمركم بهذا حقاً؟!

- نعم، ولولا أن دافع الدين هو الذي يحركني، لما فعلت ما ترى.

- إن ديناً يأمر بهذا لهو دين حق وأمر خير، حدثني عن